لا حديث مع الغرباء

جلست بجوار نافذة القطار تتطلع باهتمام مصطنع لذلك الضجيج برصيف المحطة، لكن شرودها يأخذها إلى مكان آخر، تستعيد كل أحداث الماضي، تتذكر حديث عمها عندما عرض عليها الزواج من أحدهم ورفضها له من أجل استكمال دراستها (الماجستير والدكتوراه).

«لن أغصب عليك الزواج، ولم أبخل عليك يومًا في شيء، بعد وفاة والدك ووالدتك أصبحتِ مثل ابنتي لم أفرق بينكما، لكنني حقًّا أصبحت غير قادر على تحمل أعباء مصاريف تعليمك أكثر من ذلك، لك حرية الرأي».

لم تكن المرة الأولى التي تشعر فيها بأنها وحيدة في ذلك العالم، لكن كعادتها تتصنع عدم الاهتمام واللا مبالاة حتى بينها وبين نفسها، لأول مرة تترك مدينتها النائية البعيدة عن الضوضاء إلى العاصمة، بعد أن أخبرتها إحدى قريباتها بوجود عمل لها في

إحدى المكتبات الكبرى بجوار دراستها ومكان سكنها، ما كان عليها إلا القبول بأي عمل مناسب من أجل إرضاء طموحها.

جاء متأخرًا كعادته قبل أن يتحرك القطار بدقيقة واحدة، يحمل حقيبة خلف ظهره بطريقة طفولية، ملابسه تنم عن شخصية عملية جدًّا، رغم أنه من سكان العاصمة إلا أنه يرى بأن التعامل مع المظهر شيء تافه، وأن الجوهر أهم بكثير مما انعكس على طريقة لبسه الغير مهندمة، فن اختيار الملابس آخر شيء يفكر فيه، طبيب بيطري سافر إلى المدينة من أجل شيء يخص عمله.

يكره مداعبة أصدقائه له وبعض من الأقارب عندما يلقبونه بـ(دكتور البهايم).

حاول اختصارهم جميعًا بعد أن أحس بالراحة في وحدة، أخرج من جيبه تذكرته، محاولًا البحث عن رقم مقعدة الصحيح، وعندما عثر عليه وضع حقيبته بعنفٍ مبالغ في الدرج الخاص بحقائب المسافرين، ثم جلس أمامها، أخرج منديلًا ورقيًّا وبدأ يمسح وجه.

ما زالت تتطلع خارج النافذة، لم يودعها أحد، حاولت التحكم في دموعها، لكن هناك أشياء تحدث خارجة عن إرادتنا، انسابت الدموع من عينها، فحاولت ارتداء نظارتها الشمسية، فتحت حقيبتها وظلت تبحث عن منديل وسط أغراضها المتزاحمة،

لكن فشلت في الوصول إليها، كان يراها لكن وجد أن من الأفضل التصنع بأنه لم ينتبه لها، تأخرت في إيجاد المناديل، تلك المرة وبدون تفكير أو تردد وضع المناديل على حقيبتها دون أن يتفوه بكلمة، نظرت إليه من خلف نظارتها بتعجب،

ثم أردف بابتسامة صغيرة: «أعتقد أنكِ تبحثين عنها».

حاولت التحدث لكنه قطع كلامها متابعًا: «معي أكثر من علبة لا تقلقي».

ما كان عليها إلا أن تأخذ المناديل وتشكره، ثم تعيد النظر إلى الخارج مرة أخرى بعد أن كفكفت دموعها، وبغيظ تغمغم لنفسها «أكره الحديث مع الغرباء، أتمنى أن يمر بائع مناديل من هنا حتى أرد له علبة، أعتقد بأنني أبدو حمقاء أمامه، لا يهم مجرد ساعات وأصل ولن أراه مرة أخرى، استعيدي ثقتك في نفسك مجددًا عزيزتي فلا أحد يهتم لأمرك مثل نفسك».

ما زال يرمقها في صمت، ثم أمسك بهاتفة ليبحث عن أي شيء يأخذ فكره بعيدًا عنها، لكن دون جدوى، ما زال ينظر إليها من وقت لآخر بنصف عين «تُرى ما بها! وأي شيء جعلها تبكي بتلك الصورة، لا أرى أحدًا يودعها، ربما كانت مثلي وجدت راحتها في وحدتها، أو هي بالفعل وحيدة مرغمة، آه يا إلهي! لا أحب الحديث مع الغرباء، لكن هناك شيء جعلني أشعر بالمسؤولية تجاهها، أي

حديث أقوله لنفسي، حقًّا أبدو مثل الأحمق أمامها، سأحاول النوم قليلًا علني أخرجها من عقلي، على الأقل سأحاول التغلب على نظرات عيني لها، ساعات وأصل ولن أراها مرة أخرى».

بعد وقت نظرت إلى ساعتها بتأفف ونفاذ صبر «أكره السفر كثيرًا، والأوقات الكثيرة في الانتظار، لا بل أكره الانتظار نفسه»، ثم همت بالوقوف تنظر حولها باهتمام، قالت لها إحداهنّ بأنه يوجد في القطار بوفيه أن رغبتي في شيء، لكن دون قصد لمست حقيبتها قدميه، كان نائمًا، أو كان متصنعَ النوم، نظر إليها في تعجب ثم تلون وجهها وبخجل:

ـ آسفه لم أقصد حقًّا، عذرًا منك.

ـ لا عليك.

أعتدل في جلسته متسائلًا: هل تبحثين عن شيء؟

قالت بتلعثم: أريد فقط أن أعرف مكان البوفيه؟ أرغب فقط في تناول القهوة.

أنتفض من مكانه دون الالتفات إليها وبجدية: إذًا اجلسي مكانك وسأحضر لك أنا القهوة هنا، فأنا أيضًا أرغب في تناول كوب من القهوة.

نظرت إلى أثره إلى أن اختفى، فاغرةً فاهها، بتعجب ثم جلست مكانها تحاول إدراك ما يحدث.

أثناء توجهه إلى البوفيه تباطأت خطواته للحظة متعجبًا محادثًا نفسه: ماذا فعلت! ولِمَ لا أصف لها مكان البوفيه وأُنْهِي الأمر، أنا لا أحب أن أكون مسؤولًا عن أحد إذًا، لماذا هي!

ثم أكمل خطواته لجلب القهوة باستسلام مؤقت لتفكيره.

ما زالت في حالة دهشة عاقدة حاجبيها بتذمر لتضرب حقيبتها بكلتا يديها: أنتِ السبب!

ثم أعادت ظهرها للخلف باستسلام.

بعد دقائق وقف أمامها حاملًا بين يده كوبين من القهوة لينظر إليها بابتسامة واسعة:

ـ تفضلي قهوتك، عذرًا نسيت أن أسألك كيف تشربينها، أتمنى أن تكون مضبوطة؟

أخذت كوب القهوة بابتسامة عفوية:

ـ بالفعل أنا أشربها مضبوطة.

جلس مكانه وبدأ في شرب قهوته مع نظراتهما المتبادلة في صمت، ثم قرر أن يتحدث بعد صراع طويل مع نفسه، تكحكح بهدوء ليستعد للحديث:

ـ أنتِ من سكان المدينة؟

تململت في جلستها ثم أردفت وهي تنظر إلى كوب القهوة بخجل:

ـ نعم أنا كذلك.

ساد صمت لدقيقة قبل أن يبدأ في الكلام مرة أخرى:

ـ مسافرة العاصمة من أجل العمل أم الدراسة؟

ـ الاثنان معًا.

ـ رائع، أشعر بالحماس عندما أجد شخصًا طموحًا يبحث عن النجاح دون الالتفات إلى المعوقات في حياته، أعتقد إنكِ واجهتي تلك المعوقات؟

قالها بقصد حتى يرى ملامحها عند استقبالها سؤاله البغتة.

نظرت إليه بتعجب وضيق من تجاوزه ثم أجابت:

ـ لماذا قلت هذا؟ أنا لم أواجه أي معوقات في حياتي.

ثم نظرت إلى كوب القهوة لتعبث فيه بأناملها في شرود.

ـ أنا آسف لتجاوزي، لكن مدينة مثل مدينتك أعتقد بأن تفكير الأهل محدود بعض الشيء، ولن يتقبل أحد فكرة أن تذهب فتاة صغيرة في السن، وجميلة مثلك إلى المدينة، ومن أجل العمل والتعليم معًا، أنا أقصد هذا.

أردفت باستسلام:

نعم أنت محق، لكن والدي ووالدتي قد وافتهم المنية وأنا في سن السادسة من عمري، وتربيت بعدها في بيت عمي.

ـ أنا آسف حقًّا.

ـ لا عليك.

نظرت بعدها إلى الخارج مرة أخرى بعد وقت، ثم نظرت إلى يدها متذكرة جملة كتبتها لها إحدى المعلمات قديمًا بالقلم الجاف «لا حديث مع الغرباء».

لتضم بعدها كفيها بطريقه لا إرادية منها «ما كان أن أبادله الحديث، أنا المخطئة، كان يجب ردعه عند أول كلمة، لا أحب أن يتدخل أحد في شؤوني الخاصة، ولا أحب الحديث مع الغرباء، أكره هذا الشعور، وأكره إحساسي بالخوف، لكنني حقًّا أفتقد الاهتمام، لأول مرة أشعر بأن أحدهم مهتم لأمري، مهتم أن يسمعني، لكن دون جدوى أظن بأننا اقتربنا على الوصول، ولن أراه مجددًا».

ظل يرمقها من وقت لآخر منزعج من نفسه ومن تجاوزه في الحديث: «أعتقد بأنني وجب عليّ الاعتذار منها، لكن لا أظن بأنني قادر على أن أتفوه بكلمة مجددًا بعد الألم والإحراج الذي سببته لها، أكره هذا الشعور، وأكره نفسي الخائفة من الاقتراب، أشعر بأنني أعرفها منذ وقت، لكن ما الجدوى.. أظن بأننا اقتربنا على الوصول، ولن أراها مجددًا».

ـ هل ينتظركِ أحد؟

ـ لا أظن.

ـ إذًا هل تمانعين بأن أوصلك؟

قطعت كلامه بجدية:

ـ نعم بالتأكيد أمانع.

ـ أنا آسف، لقد تجاوزت حدودي، هل أخبرتك بأنني طبيب! تركت العاصمة وسافرت إلى مدينتك من أجل العمل، ممكن أن تقولي بأنني أيضًا مثلك وحيد في هذا العالم.

بدأ حديثه يجذب انتباهها.. يرغمها على الإنصات إليه باهتمام شديد، مصحوبة بابتسامة على فمها وعينيها التي يجذبها ملامحه عند الحديث، ابتسامة وقهقهته، حركة يديه التعبيرية أثناء الكلام، للحظة شعرت بالطمأنينة تجتاح قلبها، والراحة لأول مرة تشعر بها في حياتها.. إحساس بزغ الأمل داخلها، تعجبت من تفكيره الذي يشبه إلى حد كبير تفكيرها بعد أن يئست في إيجاد شخص يحمل جميع هذه المواصفات، نسيت لبعض الوقت ما كان مكتوبًا يومًا بيدها: «لا حديث مع الغرباء».

توقف القطار فنظر كلًّا منهم إلى الآخر بضيق، ثم أردف باستسلام وحزن:

ـ لقد وصلنا.

لم تجب عليه، استقامت من مكانها لتستعد إلى النزول، أخذ حقيبته مسرعًا للحاق بها، ليوقفها:

ـ ياااا!

تنبهت إلى ندائه ليجد عينيها تلمع كأنها تستعد إلى البكاء.

ـ نسيت أن أسألك عن اسمك.

ابتسمت ثم أردفت بنبرة حزينة:

ـ أماني، اسمي أماني.

أومأ برأسه بابتسامة صغيرة ليكرر الاسم خلفها بخفوت «أماني»، لكنها سمعته ثم تركته لتأخذ حقيبتها، بينما هو ذهب خلفها مجددًا:

ـ انتظري أنا سأحمل عنك الحقيبة إلى الخارج.

ـ لا أتركها هنا أنا سأهتم بهذا، شكرًا لك.

ثم توقفت للحظة تنظر إليه لتمد يديها لكي تصافحه.

ـ أظن بأنها النهاية ويجب عليَّ أن أذهب، سعدت كثيرًا بالكلام معك.

قطب جبينه ثم أردف:

ـ النهاية؟ ولماذا إذًا لا تقولي بأنها البداية، دعيني أقوم بتوصيلك، أو على الأقل اجعلي هناك تواصلًا بيننا، أشعر بأنني أعرفك منذ وقت طويل.

حملت حقيبتها وهي تردف:

ـ إذا كان لنا نصيب أن نلتقيَ مجددًا سنلتقي، لكنني ما زلت أخشى الاقتراب من الغرباء.

ثم تتركه ومضت، ليعلو صوته مرة أخرى:

ـ سنلتقي أعدك بذلك، أماني.

لينطق اسمها بخفوت حزين واستسلام قاتل.

بينما هي نظرت إلى كفها ثم ضمتها بشدة حتى انغرست أظافرها في راحة يدها.

تتمتم لنفسها بصوت خافت: «لا حديث مع الغرباء، لا حديث مع الغرباء».

ثم بكت لتختفي بعدها عن مرمى أنظاره.

عندما يتغلغل الخوف بداخلك تأكد بأنك ستضيع منك ألف فرصة وحكايات، إن بقيت ستغيرك إلى الأحسن، ستجعلك إنسانًا جديدًا، فلا تدع الخوف يتسلل إلى حياتك بل اقترب، جرب، حاول، فالاستسلام مرض يجهزك إلى اليأس إلى الموت البطيء.

«الحياة أجمل من أن تعيشها وحيدًا بين جدران خوفك».